

فضيلة الحكمة

الحكمة عند أكابر العلماء الأخلاقيين من القدماء أم الفضائل وملاك الشيم الإنسانية. وأصل كل فضيلة عنها تصدر وإليها تعود، وأسمى القيم وأجلها، وتمام العلم وكمال المعرفة، من حواها فقد حوى الخير كله.

والحكمة: الفضيلة العليا التي تنشأ من سيطرة القوة العاقلة على القوة الشهوانية.

والحكيم هو من يفعل الخير لأنه الخير في ذاته لا لغرض آخر، والحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتيان في قول أو فعل، فالمعرفة بالقرآن الكريم، فقهه ونسخه ومحكمه، ومتشابهه، وغريبه، ومقدمه، ومؤخره، والإصابة في القول والفعل، والعقل في الدين، والتفكر في أمر الله، وطاعة الله، والخشية له والفهم، والورع كل ذلك نوع من الحكمة التي هي الجنس.

وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فالعلم حكمة لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه وهو كل قبيح.

وأصل مادة الحكمة موضوع لمنع يُقصد به إصلاح.. ومنه سمي «حكمة الدابة» وقيل حكمته وحكمت الدابة، منعته بالحكمة، وأحكمتها جعلت لها حكمة.

والحكمة تكون في اللجام، وفسرها في القاموس بأنها ما أحاط بحنكى الفرس من اللجام، وفسرها غيره بأنها حديدة من اللجام تكون في الفم.

والحكم بالشيء أن تقضى بأنه كذا أو ليس بكذا، سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه. قال النابغة الذبياني من قصيدة يمدح فيها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه من وشاية به:

وأحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الشمد
وفتاة الحى قيل هى زرقاء اليمامة، ولها قصة فى حدة النظر والإصابة من
بعيد، والشم الماء القليل.

والحكم أعم من الحكمة، فكل حكمة حكم، وليس كل حكم حكمة فإن
الحكم أن يقضى بشي على شيء فيقول هو كذا أو كذا.

والحكمة العدل، والحلم والعلم، وهو حكيم أى عدل حلِيم، وحكمه
وأحكمه أتقنه ومنعه من الفساد، وسورة محكمة غير منسوخة، الآيات المحكمات
مثل قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾^(١)...
إلى آخر السورة، أو التى أحكمت فلا يحتاج سامعها إلى تأويلها لوضوحها
كأقاصيص الأنبياء عليهم السلام.

والحكمة من الله سبحانه وتعالى: معرفة الأشياء وإيجادها، على غاية
الإحكام والإتقان، ومن الإنسان معرفة الموجودات، وفعل الخير، وإذا وصف
القرآن بالحكمة فلتضمنه الحكمة، مثل قوله تعالى فى سورة يونس: ﴿الَّذِي تَلَّى
آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾^(٢). وقيل معنى الحكيم: المحكم - نحو قوله تعالى فى
سورة هود: ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتَهُ﴾^(٣). وكلا المعنيين صحيح.

وتعاليم الإسلام تعتبر الحكمة منحة من الله يختص بها من يشاء من عباده
فمن أصاب من فضل الله علماً غزيراً، وتوفيقاً فى العمل، وإصابة فى الحكم فقد
أصاب الحكمة والخير كله.

(١) الأنعام: ١٥١.

(٢) يونس: ١.

(٣) هود: ١.

وقال سبحانه وتعالى في سورة لقمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾^(١). وفي داود عليه السلام قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾^(٢).

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾^(٣).

والناظر في هذه الآيات وما جرى مجراها من الآيات التي تناولت ذكر الحكمة يلحظ أنها كلها تجعل الحكمة هبة من الله، وليست باجتهاد من الإنسان فهي إيتاء من الله وتفضل منه سبحانه وذلك حق. فالإنسان باجتهاده، وقد يحصل على فضيلة من الفضائل أو أكثر. أما أن يحصل على الفضائل كلها وأن يصل إلى الكمال الإنساني بحصوله على الحكمة فذلك أمر لا يتأتى بالاجتهاد ولا يحصل إلا بتوفيق من الله فهو مصدر الحكمة، ومنه يفيضها على من يشاء من أنبيائه وأوليائه الذين ينصبهم مثلاً علياً يجتهد الناس في التمثل بهم، والسير على منهاجهم. ولا يعني هذا أن نياس من الحصول على فضيلة الحكمة بل على الإنسانية أن تسعى في الاقتراب منها قدر الإمكان، ولكل منها على قدر اجتهاده.

واين مسكويه في كتاب «تهذيب الأخلاق» يرى:

أن الحكمة فضيلة النفس الناطقة المميزة، وهي أن تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة. وإن شئت فقل أن تعرف المعقولات أيها يجب أن يفعل وأيها يجب أن يغفل.

والحكمة تقتضى من طالبها بصرًا بالأمر، وعمقاً في الفهم، ودقة في الإدراك، وأناة في التفكير، وحذراً وحيطة قبل الاندفاع في الفعل. وهذه الأمور لا تُنال بالعلم المأخوذ من المعاهد والمدارس، أو بالمعرفة المستفادة من بين دفتي كتاب. ولكن مكانها الحقيقي هو الكون المشور في مدرسة الحياة يتعلم الإنسان منها الحكمة والدراية والبصر بالأمر. وكم من أناس يحملون من الإجازات

(١) لقمان: ١٢.

(٢) ص: ٢٠.

(٣) البقرة: ٢٥١.

المدرسية والدرجات العلمية الشيء الكثير وهم لا يفقهون من أمور الحياة إلا أقل القليل. وكم من أناس لم يدخلوا مدرسة في حياتهم ومع ذلك تراهم قد عركوا الحياة، وعركتهم الحياة، فتعلموا منها ما يجعلهم على قدر كبير من الفضيلة، وحظ غير قليل من الحكمة.

والشائع المتواتر على ألسنة العلماء يؤخذ منه أن الحكمة هي الإصابة في العلم والعمل، لأن العلم الصحيح يكون صفة محكمة في النفس حاكمة على الإرادة، توجهها إلى العمل. ومتى كان العمل صادراً عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح النافع المؤدى إلى السعادة.

وفي المنار: «كم من محصل لصور كثيرة من المعلومات خازن لها في دماغه ليعرضها في أوقات معلومة لا تفيده هذه الصورة التي تسمى علماً، في التمييز بين الحقائق والأوهام، ولا في التمييز بين الوسوسة والإلهام، لأنها لم تتمكن في النفس تمكناً يجعل لها سلطاناً على الإرادة، وإنما هي تصورات وخيالات تغيب عند العمل وتحضر عند المراء والجدل».

فالعقل هو الميزان القسط الذي توزن به الخواطر والمدركات، ويميز به بين أنواع التصورات والتصديقات. فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام، وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام، وهذا القول يتفق مع ما روى عن ابن عباس من: «أن الحكمة هي الفقه في القرآن» أى معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بعلمها وحكمها لأن هذا الفقه هو أجل الحقائق المؤثرة في النفس، الماحية لما يعرض لها من الوسوس حتى لا تكون مانعة من العمل الصالح.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١). فالله سبحانه وتعالى جعل الخير الكثير مع الحكمة فالخير والحكمة لا يفترقان كما لا يفترق المعلول عن علته التامة.

فالحكمة هي العلم الصحيح المحرك للإرادة إلى العمل النافع الذي هو الخير.

وألة الحكمة هي العقل السليم المستقل بالحكم في مسائل العلم فهو لا يحكم إلا بالدليل، فمتى حكم جزم فأمضى وأبرم .

وكرر الله ذكر الحكمة في الآية ولم يضمها اعتناءً بها وتنبها على شرفها وفضلها وليس كل عمل فكري أو تصوري أو فني أو سلوكي يصدر من الإنسان يسهم في الحضارة الإنسانية وإنما الذي يسهم ذلك العمل الذي يصدر من الإنسان ممثلاً لخصيصة من الخصائص الإنسانية.

فالعقل الفكري الدقيق، والتصور الرفيع، والسلوك الرشيد، هو أساس الحضارة الإنسانية والعامل في نموها وتقدمها. فالإنسان الحكيم هو صاحب الحكمة وهو الذي بذل جهداً وتجلت إرادته وأصبح ذا فاعلية، وخرج عن التأثر وأضحى مؤثراً: مؤثراً بفكره وبتصوره، وبسلوكه في التوجيه والتعبير. وللحكمة أثر بعيد المدى في ضبط سلوك الأفراد والمجتمعات، بها تتجنب مزالق الأقدام وتتوقى الأخطار.

وما كانت الحكمة شأن فرد إلا أصاب النجاح والفلاح، ولا كانت خلق أمة إلا وصلت إلى الحضارة الراقية من أقرب طريق. وكيف لا، والحكمة تقتضى قبل كل عمل تبصراً بالأمر من جميع النواحي، وحذراً وحيطة قبل الاندفاع فيها فتؤمن بذلك المغبة وتزكو الثمرة. . وتعاليم الحكمة لم تكن معروفة إلا قليلاً في عصر الجاهلية العربية. فلما جاء الإسلام الحنيف مجد الحكمة، ودعا إليها، وزخر الأدب الإسلامي بذكرها، ولهج بها الشعراء والكتاب والعلماء والأدباء. ومن حكم ابن دريد:

وأفضل قسم لله للمرء عقله

فليس من الخيرات شىء يقاربه

فزين الفتى فى الناس صحة عقله

وإن كان محظوراً عليه مكاسبه

يعيش الفتى بالعقل فى كل بلدة
 على العقل يُجرى علمه وتجاربه
 ويزريه فى الناس قلة عقله
 وإن كرمت أعراقه ومناسبه
 إذا أكمل الرحمن للمرء عقله
 فقد كملت أخلاقه ومآربه
 وما أبدع قول الشاعر :

ابداً بنفسك فانها عن غيرها

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وكفى الحكمة شرفاً وفضلاً أن وصف الله سبحانه وتعالى ذاته العلية بها فى غير موضع من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١). ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢). والحكيم ذو الحكمة. والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.

والمجتمعات الإنسانية فى أشد الحاجة إلى الحكمة، تنشدها فتجد فيها مبتغاها، وتطلبها فتجد فيها الأمان والأمان، وتنطلق بها فتصل إلى مراقي السعادة، وتعمل بها فتحظى بكل تقدير.

وإن نظرة تقويمية لوجودنا، ولحظة فحص وامتحان لكل مقوماتنا، ومراجعة واقعية لمفاهيمنا وسلوكنا، إن فحصاً موضوعياً لكل هذا يرينا أننا بدون الحكمة سوف نضل الطريق، ونقع فى متهات موعلة فى الظلام الجهم. والجاهلية العمياء.

(١) يوسف: ٨٣.

(٢) النساء: ١١.

ولعل خير الطرق لاكتساب فضيلة الحكمة والتحلّى بها هو الأخذ بأفضل أساليب التربية الأخلاقية، والعمل على أن نأخذ سمت الحكماء الحقيقيين، الذين يؤثرون القناعة والاعتدال، والحق والعدل فى أعمالهم، والصدق فى أقوالهم.

وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها».
